وزاره تاجُ الدولة فلم يقُمْ له ولم يلتفت إليه، وكذا ولده دُقاق، وسأله دُقاق: أيُّ الأمور أحلُّ؟ فقال: مال الخوالي. فلما خرج بعث إليه بمبلغ فلم يقبَلْه.

وكانت وفاتُه يوم الثلاثاء تاسع المُحرَّم بدمشق، وكانت له جنازةٌ لم يرَ الناسُ مثلَها، خرج بها بعد الظهر فلم تُدفن إلى وقت الغروب؛ لأن الناس حالوا بينه وبين حامليه، ودُفِنَ بالباب الصغير خارج الحظيرة التي على قبر معاوية الضيِّق جانبها القبلي، وأقام الناسُ على قبره سبعَ ليالٍ يختمون [القرآن][1] كلَّ ليلة عدة ختمات، سمع بدمشق، وأقام بصور عشر سنين، فسمع بها، وأمَّ بالجامع الأقصى بالبيت المقدَّس، ومن صحب أبا إسحاق الشيرازي وابن الجويني عَلِمَ أنَّ الفقيه نصراً كان أفضلَ منهما وأحسنَ طريقةً، رحمةُ الله عليه.

يحيى بن أحمد[2]

ابن [أحمد[3]] بن محمد بن السِّيبي، ولد سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة، وتُوفِّي في ربيع الآخر هذه السنة، وعاش مئة وثلاثة وخمسين سنة وثلاثة أشهر وأياماً، وكان صحيحَ الحواسِّ، يُقرأ عليه القرآن، ويسمع الحديث، ورحل الناس إليه، وكان ثقةً صالحاً صدوقاً.

السنة الحادية والتسعون وأربع مئة

فيها كثر الاستنفار على الفرنج، وتواترت الشكايات منهم، وكتب السلطان بركياروق إلى العساكر يأمرهم بالخروج مع عميد الدولة للجهاد، ويجهز سيف الدولة صدقة، وبعث مقدماته إلى الأنبار، ثم وردت الأخبار إلى بغداد بأن الفرنج ملكوا أنطاكية وصاروا إلى معرة النعمان، فقتلوا ونهبوا، وكانوا في ألف ألف إنسان[4].

---

(١) ما بين حاصرتين في (ب).

(٢) المنتظم ١٧/ ٤٢ ، والأنساب ٧/ ٢١٦ ، والكامل ١٠/ ٢٧١ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ٩٨ ـ ٩٩ .

(٣) ما بين حاصرتين من (ب) والمصادر.

(٤) الخبر في المنتظم ١٧/ ٤٣ .

ذكر شرح ذلك:

كان خروجهم أولاً إلى بلد أنطاكية فلم ينازلوها، وجاؤوا إلى المعرة، فنصبوا عليها السلالم[١]، ونزلوا فقتلوا من أهلها مئة ألف إنسان، وسبوا مثلَ ذلك، ثم دخلوا كفر طاب، وفعلوا مثلَ ذلك، وعادوا إلى أنطاكية، وكان بها الأمير يغي شعبان، وكان على الفرنج صنجيل، فحاصروها مدةً، فنافق رجل يُقال له: فيروز، وفتح لهم في الليل شباكاً فدخلوا منه، ووضعوا السيف، وهرب يغي شعبان وترك أهله وأمواله وأولاده بها، فلما بعُدَ عن البلد ندم على ذلك، فنزل عن فرسه، فحثا التراب على رأسه وبكى ولطم، وتفرَّق عنه أصحابُه، وبقي وحده، فمرَّ به رجلٌ أرمنيٌّ حطَّاب، فعرفه، فقتله وحمله معه ـ بعد أن قطع رأسه ـ إلى صَنْجيل.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: في جمادى الأولى ورد الخبر بأن قوماً من أهل أنطاكية عملوا عليها، وواطؤوا الفرنج على تسليمها إليهم لإساءةٍ تقدَّمت منه في حقِّهم ومصادرته لهم، ووجدوا الفرصة[٢] في برج من أبراج البلد ممَّا يلي الجبل، فباعوهم إياه، وأصعدوهم منه في السحر، وصاحوا، وانهزم يغي شعبان، وخرج في خلق عظيم، فلم يسلَمْ منهم شخص، فسقط من فرسه عند معرة مِصْرين، فحمله بعضُ أصحابه وأركبه، فلم يثبُتْ على ظهر الفرس، وسقط ثانياً فمات.

وأما أنطاكية فقتل منها وسبي من الرجال والنساء والأطفال مالا يُدركه حصر، وهرب إلى القلعة قَدْرُ ثلاثة آلاف تحصَّنوا بها، وكان افتتاح المعرة في ذي الحجة بعد فتح أنطاكية.

وفيها اجتمع ملوك الإسلام بالشام؛ رضوان صاحب حلب، وأخوه دُقاق، وطُغْتِكين، وكربوقا[٣] صاحب الموصل، وسُكْمان بن أُرْتُق صاحب ماردين، وأرسلان صاحب سنجار، فنازلوا أنطاكية، وضيَّقوا على الفرنج، حتى أكلوا ورق الشجر، وكان صنجيل مقدَّم الفرنج فيه دهاء ومكر، فرتب مع راهبٍ لهم حيلة، وقال:

---

(١) في (خ): الخيام، والمثبت من (ب)، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٦٦٦.

(٢) في (خ): الفرج، والمثبت من (ب).

(٣) تقدمت الإشارة إلى أن اسمه: كربوقا، لكنه تحرف في الأصلين (خ) و(ب) إلى: كربوعا.

اذهَبْ فادفِنْ هذه الحربة في مكان كذا. وقال للفرنج: رأيتُ المسيح في منامي وهو يقول: في المكان الفلاني حربةٌ مدفونةٌ فاطلبوها، فإن وجدتموها فالظَّفرُ لكم، وهي حربتي، فصوموا ثلاثة أيام، وصلُّوا وتصدَّقوا، وجاء وهم معه إلى المكان فنبشوه، فظهرت الحربة، فصاحوا، وصاموا، وتصدَّقوا، وخرجوا إلى المسلمين، فدفعوهم عن البلد، وثبت جماعةٌ فقُتِلوا عن آخرهم.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: في رجب اجتمعت عساكر الإسلام في عددٍ لا يُدركه حَصْرٌ ولا حَزْرٌ، وقصدوا عمل أنطاكية، فحصروها حتى عدم الفرنج القوت، وأكلوا الميتة، فزحف الفرنج ـ وهم على غاية من الضعف ـ إلى عساكر الإسلام ـ وهم في غاية القوة والكثرة ـ فكسروا المسلمين، وفرَّقوا جموعهم، وانهزم أصحاب الجرد السوابق، ووقع السيف في المجاهدين والمطوعين، وكتب دُقاق ورضوان والأمراء إلى الخليفة يستنصرونه، فأخرج الخليفةُ أبا نصر بن الموصلايا إلى بركياروق إلى الري يستنجده.

وفيها عزل بركياروق مؤيد الدولة بن نظام الملك عن وزارته، واستوزر أخاه فخر الملك، وذلك برأي مجد الملك القُمِّي المستوفي، وكان مؤيد الدولة في غاية من الفضل والعقل وحسن التدبير، وفخر الملك في غاية من الجهل والحمق والتبذير، فانقطع المؤيد إلى الزهد والعبادة، وانسلَّ مستخفياً، فلحق بمحمد بن ملك شاه وهو بكرمان، فأطمعه في الملك، فاستوزره، وسار به إلى أصفهان، فاستولى عليها بغير قتال، بل بحُسن التدبير، وكان فخر الملك قد أساء فيهم السيرة، وقبض محمد بن ملك شاه على زبيدة أم بركياروق، واعتقلها في قلعة وخنقها، وقال: ماتت. وقيل: إنما خنقها مؤيد الملك بوتر.

وفيها شغب الجند على بركياروق وقالوا: لاطاعةَ لك علينا، حتى تُسلِّم إلينا القُمِّي المستوفي وكان قد أساء السيرة فيهم، وضيَّق أرزاقهم، وبلغ القُمِّي، فقال لبركياروق: نفسي فداؤك، دعهم[1] يقتلوني ويبقى عليك ملكُك. فقال: لا والله لا مكَّنتُهم منك

(١) في الأصلين (خ) و(ب): دع، والمثبت من تاريخ الإسلام ١٠/ ٦٦٨.

أبداً. وعزم على تغييبه عنهم، فقيل له: متى أُخرج عنك قتلوه، ولكن أرسله مع كبرائهم، فإنهم يكرمونه. فأرسله مع ولديه وكبراء دولته؛ ظنًّا منه أنهم يكرمونه، فلما جاؤوا به إليهم قالوا لهم: إن السلطان يُسلِّم عليكم ويشفع إليكم فيه، وقد نفذ ولديه معه. فثاروا عليه فقتلوه، ثم جاؤوا من الغد فقبَّلوا الأرضَ بين يدي بركياروق وقالوا: نحن عبيدك. فسكت، وبلغَ مؤيدَ الملك، وكان قد استولى على داره وأسبابه بأصفهان، فسُرَّ بقتله، وعلم أنه قد تمكَّن مما يريد، لكنه بقي مرتهناً بسوء صنيعته مع زبيدة وخنْقِه إيَّاها.

ذكر بداية محمد بن ملك شاه:

كان لملك شاه أولاد؛ محمود، وأمه خاتون، وبركياروق، وأمه زبيدة، ومحمد شاه، وسنجر لأم وأب، وكان محمد هذا قد خرج مع بركياروق من بغداد صغيراً لأبويه مختفياً، وكانت أمه في عسكر بركياروق، فلما ولي بركياروق ضمَّه إليه، فأقام عنده مدة، ثم أقطعه كنجةَ وأعمالها، فسار إليها، ورتب بين يديه بعضَ أصحابه ـ كالأتابك ـ له، واسمه محمد، فاستولى عليه، فوثب عليه محمد شاه فقتله، واتفق مع مسير مؤيد الملك بن النظام إليه، وأطمعه في الملك، وجرت له مع أخيه بركياروق حروبٌ ووقائع، واستولى محمد شاه على المملكة، وبعث إلى بغداد، فخطبوا له سنة اثنتين وتسعين، ثم خطب لبركياروق، وسوف نذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

وفيها تُوفِّي

الحسين بن الحسن

أبو عبد الله، الشهرستاني، الفقيه، الشافعي، ولي القضاء بدمشق سنة سبع وسبعين في ولاية تُتُش، وكان نَزِهاً، عفيفاً، مَهيباً، شديداً على من خالف الحق، خرج مع الجموع إلى أنطاكية، فاستشهد بها.

أنشد لغيره: [من الطويل]

حبيبي لقد واللهِ[1] ضاقَتْ مذاهبي ... عليَّ وقد واللهِ أسلمني صبري

(١) في (خ): والله لقد، ولا يستقيم الوزن، والمثبت من (ب).

فإنْ كنتَ قد أحببتَ فُرقةَ بيننا على كلِّ حالٍ فانتظِرْ غَيْرَةَ الدَّهرِ
ومَنْ ينتظِرْ غدرَ الزَّمانِ بإلفهِ يُلاقي الذي يهوى ولا يَكُ ذا عُذْرِ
وإلَّا فأيَّامُ الزَّمانِ بأسْرِها أقَلُّ أذًى مِنْ أنْ تُمَحَّقَ بالهجْرِ

وهي لأبي بكر بن داود بن علي الأصفهاني.

طِراد بن محمد[1]

ابن علي بن الحسن[2] بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن عبد الله بن محمد ابن إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، أبو الفوارس، الزَّينبي، من ولد زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، وهي أم ولد عبد الله بن محمد ابن إبراهيم الإمام، وذلك أنَّ محمداً تزوَّجها فأولدها عبد الله، كانت عظيمة في بني العباس في الفُضلاء مثل المنصور.

ووُلِد طِراد في سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة، وسمع الحديث الكثير، ورحل الناس إليه من الأقطار، وأملى بجامع المنصور، وكان يحضر مجلسه جميعُ المحدثين والفقهاء والأشراف وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامَغاني، وحجَّ سنة تسع وثمانين، فأملى بمكة والمدينة، وولي نقابة العباسيين بالبصرة، ثم انتقل إلى بغداد، وترسَّل من الخليفة إلى الملوك مراراً، وبيته بيت رئاسة وجلالة، وتُوفِّي في شوال وقد جاوز التسعين، ودُفِنَ في داره بباب البصرة، ثم نُقِلَ في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة إلى مقابر الشهداء، وكان يُلقَّب بذي الشرفين شهاب الحضرتين، وكان يوم مات صحيحَ الأعضاء، سليمَ الحواس، وقد تورَّع بعضُ المحدِّثين عن الرواية عنه والسماع منه؛ لترسُّله إلى الملوك، وأخذِ أموالهم، وتصرُّفِه في الولايات، وهو فما كان يلتمس الرسل، وإنما كان الخلفاء يلزمونه ذلك إصلاحاً لأحوال المسلمين وانتظام الأحوال مع الملوك، ثقةً بأمانته وديانته وفضله وشرفه وطهارة أصله، والظاهر عنه التورُّع عن قبول أموالهم.

---

(١) المنتظم ١٧/ ٤٣ ـ ٤٤ ، والأنساب ٦/ ٣٤٦. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ٣٧ .

(٢) تحرف في (خ) إلى: الحسين، والتصويب من (ب) والمصادر.

ولمَّا احتضر بكى أهله، فقال: إنما يُبكى على الشباب، أما من جاوز التسعين فلا معنى للبكاء عليه.

المُظفَّر[١]

ابن رئيس الرؤساء أبي القاسم الوزير بن المسلمة، أبو الفتح، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وكان عارفاً بالفقه والأدب، وكانت دارُه مجمع العلماء والفضلاء، وأقام أبو إسحاق الشيرازي [بداره حتى تُوفِّي بها المظفَّر في ذي القعدة، ودُفن عند أبي إسحاق الشيرازي[٢]] وكان جليلاً نبيلاً.

نصر بن علي[٣]

ابن المُقلِّد بن نصر بن منقذ، أبو المُرْهَف، الكِناني، عِزُّ الدولة، مَلَكَ شَيْزَر بعد أبيه، وكان [يُعنى] بتربية إخوته وقام بها أحسن قيام، ولمَّا قدم ملك شاه الشام سلَّم إليه فامية وكفر طاب واللاذقية، وكان شجاعاً، سمحاً، صوَّاماً، قوَّاماً، بارًّا بوالديه، وفيه يقول أبوه علي بن المُقلِّد من أبيات: [من الطويل]

جزى اللهُ نصراً خيرَ ما جُزِيَتْ بِهِ ... رجالٌ قضَوا فرض العُلا وتنقَّلوا
هو الولدُ البَرُّ اللطيفُ فإن رمى ... به حادِثٌ فَهْوَ الحِمامُ المُعَجَّلُ
سألقاكَ يومَ الحشرِ أبيضَ واضحاً ... وأشكرُ عندَ اللهِ ما كنتَ تفعلُ
إلى اللهِ أشكو من فراقِكَ لوعةً ... تَوَقَّدُ في الأحشاءِ ثمَّ تَرَحَّلُ[٤]
تُفدِّيك يا نصرٌ رجالٌ محلُّهمْ ... من المجدِ والإحسانِ أن يتقوَّلوا[٥]

وقال أبوعبد الله محمد بن أبي سلامة مرشد بن علي: لم يكن أهل الشام يعرفون الغدر، وفد أبو مسلم بن سليم أحدُ بُناة المعرة على والي حلب ظناً منه أن الناس كما

---

(١) المنتظم ١٧/ ٤٦.

(٢) ما بين حاصرتين من (ب).

(٣) تاريخ دمشق ٦٢/ ٣٦ ـ ٣٩.

(٤) في تاريخ دمشق: تزلزلوا.

(٥) كذا في الأصلين (خ) و(ب)، ومعجم الأدباء ٥/ ٢٤٢: يتطوَّلوا. وفي تاريخ دمشق، وخريدة القصر ١/ ٥٧٠: يقوَّلوا.

يعهد، فقبض عليه وحبسه وضيَّق [عليه[١]] وقال: سَلِّم إليَّ المعرة. فقال: أنا واحد من بُناة المعرة. فقطع عليه خمسة آلاف دينار مصرية، ولم يكن يُعرف بالشام غير الذهب المصري، فكتب ابنُ سليم إلى عمه نصر[٢] ـ وكان ابنُ سليم فقيراً لكثرة ما يُعطي الناس ـ: [من السريع]

يا نصرُ يا ابنَ الأكرمينَ ومَنْ ... ملَكَ التِّلادَ بطارفِ[٣] الفخرِ
هذا كتابٌ من أخي ثقةٍ ... هذا أوانُ النَّفعِ والضرِّ
فامنُنْ بما أوليتَ من حَسَنٍ ... أشكو إليكَ نوائبَ الدَّهرِ

فبعث إليه بستةِ آلاف دينار، خمسةِ آلاف خلَّص بها نفسه، وبقي معه ألفُ دينار، ولمَّا تُوفِّي نصر وجدوا في خريطته اسم البيوت التي يتفقَّدها في كلِّ سنة ويُموِّنها من الشام والساحل وحلب ودمشق والقدس ومصر وبغداد ومكة والمدينة وخراسان وأصفهان والمشرق، فكان جملة ما يخرج عليهم في كل سنة عشرين ألف دينار، ولمَّا مات أخرج كلَّ ما خلَّفه والدُه أبو الحسن، ومغلَّ عشر قلاع كانت تحت يده؛ حصن الجسر وشَيْزَر وفامية وكفر طاب وعَلَّان وأسقوبا واللاذقية وغيرها، وبقي عليه سبع مئة دينار سُلِّم إلى أربابها مِلْكٌ استغلُّوه حتى استوفوا مالهم.

وكان يركب في عشرة آلاف فارس من كتابة الأوائل.

قال مرشد بن علي: دخلت عليه يوماً وهو نائم وقد كادت صلاة الصبح أن تفوته، فقلتُ لأمرأته: أينامُ أخي حتى تطلع الشمس وتفوته صلاة الصبح؟ فقالت: قد صلَّى العشاء الآخرة ولم يضَعْ جنبه إلى الأرض حتى صلَّى الصبح ونام، وهذا دأبُه منذ صَحِبتُه.

قال مرشد: أنشدت أخي أبا المرهف قول القائل: [من الخفيف]

كنتُ أستعمِلُ السَّوادَ مِنَ الأمـ ... ـشاطِ والشَّعرُ مثلُ لونِ الدَّياجي

(١) مابين حاصرتين من (ب).
(٢) العبارة في (ب): فكتب ابن سليم إلى عمر.
(٣) التِّلاد: القديم، والطارف: الجديد.

أتـلـقَّـى مـثـلاً بـمـثـلٍ فـلـمَّـا صـارَ عـاجـاً سـرَّحْـتُـهُ بـالـعـاجِ

فلما كان من الغد أنشدني لنفسه: [من الخفيف]

كـنـتُ أسـتـعـمـل الـبـيـاض مـن الأمْـ ـشـاطِ عُـجْـبـاً بـلـمَّـتـي وشـبـابـي

فـاتَّـخـذتُ الـسـوادَ فـي حـالـة الـشَّـيْـ ـبِ سُـلُـوًّا عـن الـصِّـبـا بـالـتَّـصـابـي

وكانت وفاته في جمادى الآخرة بشَيْزَر رحمه الله تعالى.

السنة الثانية والتسعون وأربع مئة

في يوم الجمعة ثالث عشرين شعبان استولى الفرنج على البيت المقدس، ساروا من أنطاكية ومقدمهم كُنْدَهري في ألف ألف، منهم خمس مئة ألف مقاتل، والباقون رجَّالة، وفَعَلة، وأربابُ مجانيق، وعرَّادات، وغيرها من آلة القتال، وجعلوا طريقَهم على الساحل، وكان بها افتخارُ الدولة من قِبَل المصريين، فأقاموا يقاتلون أربعين يوماً، وعملوا بُرجَين مُطِلَّين على السور، أحدهما بباب صهيون، والآخر بباب العمود وباب أسباط وهو برج الزاوية، ومنه فتحها صلاح الدين رحمه الله ، فأحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون، وقتلوا مَنْ فيه.

وأما الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور، وحكموا به على البلد، وكشفوا مَنْ كان عليه، ورمَوا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد، فانهزم المسلمون، فنزلوا البلد، وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى، فاحتموا بها، فهجموا عليهم، فحُكي أنهم قتلوا في الحرم مئة ألف، وسبَوا مثلهم، وقتلوا الشيوخ والعجائز، وسبوا النساء، وأخذوا من الصخرة والأقصى سبعين قنديلاً، منها عشرون ذهباً، في كل قنديل ألف مثقال، ومنها خمسون فضة، في كل قنديل ثلاثة آلاف وست مئة درهم بالشامي، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، وأخذوا من الأموال مالا يُحصى.

ومنذ افتتحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه في سنة ست عشرة لم يزل في أيدي المسلمين إلى هذه السنة، وكان الأفضل بن أمير الجيوش لمَّا بلغه أنهم قد ضايقوا القدس سار في عشرين ألفاً، وجَدَّ في السير، فوصل ثاني يوم فتحه ولم يعلم،